طبيعة الإسلام

يواجه المسلمون الأمريكيون ثلاث مهام رئيسية :

(١) أن يسلّموا دينهم إلى الجيل التالى سليمًا خالصًا (فى مجتمع يتميز بالتساهل والاستهلاكية إلى قدر كبير) .

(٢) إقامة الدليل أمام الشعب الأمريكى على إمكانات الإسلام الروحية والديموقراطية، مظهرين أن هذا الدين وثيق الصلة بالحل لمعظم - إن لم يكن مجمل - بلايا المجتمع المعاصر . . . وأخيرًا .

(٣) المساعدة على التجديد وإعادة التركيز للعالم الإسلامى على اتساعه، وبالأخص من خلال الفقه الإسلامى المنفتح (غير المعوّق) الذى يركز على جوهر عقيدتنا .

مراد ويلفريد هوفمان ، استانبول، ١٩٩٧م.

يشكل الإسلام (أو ينبغى له أن يكون) محور حياة كل منتسب لجماعته، وينبغى على المرء لفهم نموذج المسلم الأمريكى أن يتسلح بإدراك المفاهيم التى تشكل حجر الزاوية والتى يتميز بها الإسلام، وليس الغرض من هذا الجزء أن يكون حواراً كاملاً عن أسلوب الحياة الإسلامية أو عن شريعة الإسلام؛ بل إنه محاولة للكشف عن بعض الخيوط والمفاهيم العامة من خلال إبراز الفقه المتعلق بقضايا متنوعة قد أسىء فهمها .

وأنا مضطر مرة أخرى لأن أوضح أن تلك المحاولة ليست نظرة - لطبيعة الإسلام -

ليبرالية، ولا يسارية، ولا اعتذارية، ولا انتقائية، ولا توافقية، إنها تمثل الفكر الإسلامى للتيار السائد، المتزن، المعتدل، مثلما يبرهن عليه فقه المسلمين الأمريكيين مع الالتزام التام بالشريعة (القانون الإسلامى).

يوجد منذ الحادى عشر من سبتمبر وابل من نيران الكتابات والتغطية الإعلامية عن الإسلام، الكثير من السلبيات كانت نتيجة لأخطاء غير متعمدة، أما الباقى (ومعظمه شفاهى) فيعود إلى حد كبير إلى خبث طوية بعض جماعات المصالح الخاصة، وسنحاول من خلال هذا الجزء توضيح الأخطاء غير المقصودة الناتجة عن نقص المعلومات.

الخطأ الأكثر شيوعًا والسائد بين المعلقين على الإسلام فى جميع أنحاء العالم (حتى فى داخل العالم الإسلامى)، هو أن الإسلام يصنف ضمن نموذج الدين المعاصر/ الغربى، وينتج عن مثل هذا التحليل صياغات من مثل «التجديد الإسلامى»، مع أفكار أخرى مستعارة من الكنيسة الرسمية والكنائس المنفصلة، وعادة ما يرجع السبب فى هذه الأخطاء إلى نقص المعرفة باللغة العربية، وهى اللغة التاريخية للنصوص الإسلامية، وهى أيضًا لغة الحضارة الإسلامية.

يختلف الإسلام كدين ـ أسلوب حياة ـ على مستواه التأسيسى اختلافًا كبيرًا عن المسيحية واليهودية؛ لذلك فعلى الرغم من أن «الديانة» [بمعنى الطقوس] هى أحد مكونات الإسلام، لكنها لا تكفى بمفردها لتناول شمولية الخضوع لإرادة الله وفقًا للرسالة التى أنزلت على محمد ﷺ.

«ليس الدين كما يقدمه لنا القرآن مسألة طقوس وشعائر، إنه يهتم ويتعلق بالهدف الشامل للحياة، وبرنامج العمل الذى يمكن به الوصول إلى هذا الهدف؛ ويعطى الدين المجال الكامل لمبادرة الإنسان وحرية اختياره، وأنه يخاطب الشخص الحر والكَيس الفَطِنَ، والذى يملك الشجاعة على التفكير، والحكم، والفعل من أجل ذاته، ويوفر الدين المبادئ العريضة التى تهب الإنسان الهداية فى مغامرة الحياة، والتى تعينه على الوصول إلى مرافئ التعرف على نفسه وإلى الرفاه الاجتماعى»[1].

---

(١) ج. أ. برويز: تحدى الدين. ص ٧٧/ ١٩٦٧م.

ويشير «مراد هوفمان» السفير الألمانى السابق لدى الجزائر والمغرب[1]، والفقيه المسلم الألمانى إلى أن مدارس الفكر المتنوعة «لم تكن قط عرضًا من أعراض الانقسامات الحزبية، ولكنها دليل على الحيوية والسعة للتعددية الحقيقية داخل دوائر الفكر الإسلامى، فيما مثلته الشخصيات الأكاديمية البارزة كأبى حنيفة (مات عام ٧٦٧م)، ومالك بن أنس (مات عام ٧٩٥م)، ومحمد بن إدريس الشافعى (مات عام ٨٢٠م)، وأحمد بن حنبل (مات عام ٨٥٥م) ـ فلم ينو أىٌ منهم إقامة مذهب (للفكر الفقهى)». وحضور العديد من هؤلاء الفقهاء دروسَ بعضهم البعض هو حقيقة موثقة، هذا التنوع والاختلاف فى الآراء هو جوهر فكر المفكرين الإسلاميين، من المهم لكى نفهم طبيعة الإسلام، أن نتفهم بعض الأعمدة الأساسية لتعاليمه.

الشريعة

«يهيئ القرآن عقل المسلم ليتقبل أولويات تعاليمه، وليتجنب رؤيتها فى الفراغ، أو بأسلوب أحادى البعد» [2]. وعلى النقيض من الرأى السائد، فليست الشريعة هى قانونًا اجتماعيًا إصلاحيًا يشمل مجموعة قواعد. يجتاح سوء الفهم هذا الفكر الإسلامى كوباء بنفس القدر الذى يجتاح به الكتابات العالمية عن الإسلام، «ينسى (بعض المسلمين) أن الشريعة الإسلامية تحمل فى طياتها العناصر الجوهرية المتعلقة بمرونتها؛ بحيث إن بعض شروطها تتقبل التغيير طبقًا للتغير فى الظروف بينما البعض الآخر لا يتغير، وذلك هو البعض القليل» [3].

الشريعة ذات شعب ثلاث، يشكل القرآن وهو كلمة الله الحقة، المصدر الأول، ويؤيده تراث (السنة: أقوال وأفعال) خاتم الأنبياء جميعًا محمد ﷺ، والاجتهاد هو الشعبة الثالثة ذات الديناميكية القصوى (معالجة المفاهيم التشريعية باستخدام العقل البشرى واستخراج القوانين والتشريعات التى تتعامل مع المتغيرات المستجدة

---

(١) مراد هوفمان: الإسلام كبديل. ص١٠٧/ ١٩٩٧م، وقد عمل قبل سفارته خبيراً نوويا فى حلف الأطلنطى.

(٢) فتحى عثمان: الشريعة فى مجتمع معاصر. ص ٥٥/ ١٩٩٤م.

(٣) حسان حتحوت: هكذا سوف أقف بين يدى الله. ص ٤٩ / ١٩٩٩م.

التى لم يبينها القرآن ولا الحديث)، و يصنف د. حسان حتحوت فى كتابه «قراءة العقل المسلم» مقاصد الشريعة إلى مقاصد خمسة، وتشير كتابات د. حسان حتحوت بوضوح إلى التصنيف التقليدى للمقاصد الذى وضعه فقهاء القرن الثالث مثل الشاطبى والشافعى، تجمع مقاصد الشريعة على حفظ وحماية :

(١) الحياة (النفس).

(٢) العقل.

(٣) الدين.

(٤) الملكية والاقتناء (المال).

(٥) النسل.

وفى هذا الجزء سوف نهتم بالمقاصد الثلاثة الأولى.

المقصد الأول للشريعة وهو حفظ الحياة (النفس) ليس محدودًا بالنفس الإنسانية، الوعى البيئى واحترام البيئة هو أيضًا من الواجبات[١]، والفهم الأوّلى للإسلام تتولد عنه فكرة أن الله قد أنعم علينا بكتابين: القرآن والثانى هو كتاب الكون[٢]، يعبد المرء الله، ويتأمل فى عظمته من خلال التمتع بجمال وضخامة الكون، ويوضح الله فى القرآن أن هناك مخلوقات من خلقه هى نعمة للإنسان، وقد صاغ زعماء الطلبة المسلمين الأمريكيين بذكاء شديد هذه العبارة: «أنا مسلم، لذلك فأنا مهتم بالبيئة».

﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]. عادة ما يطلق القرآن على المظاهر لفظ «الآيات»، وهى الكلمة نفسها التى يمكن استخدامها لجمل القرآن الكريم، ومن اللافت للانتباه استخدام الكلمة نفسها «آيات» لجمل حكمة الله، وأيضًا لعجائب خلقه فى عالم الطبيعة، و المطلوب من المسلم - ليكون موقنًا بحق - الحفاظ بقوة على ما يتعلق بكل من العالم الطبيعى وكلمة الله، و يكتب الدكتور عثمان:

---

(١) حسان حتحوت: قراءة العقل المسلم. ص ٤٤.

(٢) حسان حتحوت: هكذا سوف أقف بين يدى الله. ص ٢٦/ ١٩٩٩م.

«الآيات التى تدل على الخالق وعلى بديع صنعه، تحيط بالناس إذا كانوا مهتمين بالتفكير والفهم، فهناك مخلوقات تعيش فى الجبال، والسهول، والصحارى، والأودية، والغابات، والماء العذب والمالح، والهواء، وهى من طوائف وأمم مختلفة تماثل الطوائف والأمم الإنسانية المتنوعة، هؤلاء الذين يغلقون حواسهم دون تلقى وفهم آيات الطبيعة، والحياة بتنويعاتها الهائلة، قد اختاروا أن يحولوا بين أنفسهم وبين نور الحق، وفضلوا أن يحيوا فى دجى ظلمات الجهل وضيق الأفق»[1].

ويهدف المقصد الثانى للشريعة إلى حفظ العقل، وحفظ حريته على جميع الأصعدة متضمنًا إبداء الرأى، والكتابة، والفن... إلخ، ولا وجود لتناقض بين العقل والإيمان فى عقيدة المسلم، وينبغى رفض الوصاية على العقل، ولا يستطيع أى كائن أن يدعى السلطة على آخر فى هذا الصدد، ولا يتوجب فقط حماية العقل من الوصاية، ولكن يتوجب حمايته أيضًا من القمع، والخوف، والقلق، والضغوط؛ وقد أتاحت رواية «سلمان رشدى» المثيرة للجدل «آيات شيطانية» اختباراً لتسامح هؤلاء الذين يملكون السلطة ويطلقون على أنفسهم مسمى زعماء المسلمين، وقد أصدر الإمام الخمينى فتوى بقتل رشدى لأسلوب تصويره للنبى محمد ﷺ وللإسلام؛ وقد كتبت المؤرخة كارين أرمسترونج: «الإكراه فى الأمور الدينية من المحرمات فى القرآن، وقد أبغضه "الملا صدرا" المعلم الروحى للخمينى، وعندما أصدر الخمينى فتواه... فقد تناقض مع دفاع "الملا صدرا" الحار عن حرية الفكر، وقد اعتبرت الفتوى غير إسلامية من قبل العلماء فى الأزهر وفى السعودية، وأدينت فى الشهر التالى من قبل ثمان وأربعين دولة من مجمل التسع والأربعين دولة الأعضاء فى المؤتمر الإسلامى»[2].

وفى الولايات المتحدة فقد جادل الفقهاء مثل د. ماهر حتحوت بقوة عن الحق الإسلامى للكاتب فى الإفصاح عما يدور فى خلده، وعن معارضته فكريًا وليس تصفيته جسديًا، وقد تم تجاهل أو نسيان مثل هذه الأفعال عندما تحدث الصوت المسلم إلى أمريكا باتساعها. إن حرية الفكر والتعبير هما من حقوق الإنسان

---

(١) فتحى عثمان: مفاهيم القرآن. ص ٤٤ / ١٩٩٧م.

(٢) كارين أرمسترونج: الإسلام. ص ١٧٤ـ١٧٥ / ٢٠٠٠م.

الأساسية فى الشريعة؛ لأنهما مطلوبتان لإظهار الخضوع الكامل لإرادة الله، وهما المعنى الجوهرى لكلمة «إسلام».

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

عندما يتجاهل الإنسان مواهبه الفكرية والروحية الفريدة، ويسمح للرغبات اللحظية والأهواء بالتحكم الدائم فى تصرفاته، فهو يتصرف عندئذ مثل البهائم، «للفكر الإنسانى دور جوهرى فى فهم المبادئ العامة ومقاصد الشريعة مثلما صوّرها القرآن والسنة، وبالمثل فى فهم الظروف الاجتماعية القائمة والحاجات التى تبرز ضرورة الاجتهاد»(١).

تشير لفظة «الاجتهاد» إلى استخدام الدليل المتاح (دينى، أو علمى، أو إحصائى، أو اجتماعى)، للوصول إلى أفضل مسار يمكن اتخاذه بشرط ألا يتعارض مع القرآن أو السنة، أو مع مقاصد الشريعة(٢)، ويمثل هذا السماح ـ للإبداع الإنسانى ـ المفتاح لفهم النموذج الإسلامى الأمريكى أو أى نموذج إسلامى، ولا يقتصر الاجتهاد على نطاق الاجتهاد المطلق للعلماء، لكنه يقع ضمن مسئولية، ويمثل حقًا لكل عقل مسلم.

لا يمثل حفظ العقل فرضًا فقط على كل مسلم، لكنه مطلوب أيضًا للفقه الإسلامى؛ لكى يزدهر ويصبح ملائمًا لكل عصر، وينبغى على الفكر الإنسانى عند المسلم أن يكون نقطة الارتكاز للخضوع التام لإرادة الله.

الشريعة بتكوينها تقبل بوضوح فكرة القانون المستنبط أو المتطور، وتقول «أسماء جول حسن» المسلمة الأمريكية الكاتبة، والخريجة الحديثة من كلية الحقوق: «التوازن الذى حققه المسلمون الأمريكيون بين الثقافة الأمريكية والإسلام فى

---

(١) فتحى عثمان: الشريعة فى مجتمع معاصر. ص ٤٦ / ١٩٩٤م.

(٢) حسان حتحوت: قراءة العقل المسلم. ص ٤٣.

جوهره، هو قيام إسلام إصلاحى. لكن الإسلام لا توجد به الكثير من القواعد التى تتعارض بشكل كامل مع الحياة الأمريكية. . . . وعليه فإن "الإسلام الإصلاحى" ليس ضروريًا لبقاء المسلم الأمريكى»[1].

وأنا أرى أن هذا التحليل يناقض مبانى الشريعة، فنتيجة لوجود الاجتهاد فالإسلام هو إصلاحى وذو نظرة إلى الأمام بطبيعته. إصلاح كيان قانونى متحرك، ويتميز بالتغير يعنى إضفاء القداسة على نتاج الفكر البشرى الذى يتغير بالزمن (الاجتهاد)، ومساواة قيمته الفقهية بقيمة المصادر الأخرى للشريعة، ولا يمكن لهذه النتائج الوجود بالتوازى مع السلطان التام الذى فى جانب القرآن وسنة النبى محمد ﷺ.

يقف الصواب إلى جانب «حسن» بخصوص أن المسلمين الأمريكيين كانوا قادرين على الحفاظ بنجاح على مثاليا تهم مع الازدهار بوصفهم أعضاء فى التعددية، ومع ذلك فليس ذلك هو إسلامًا إصلاحيًا؛ لكنه إسلام فى أشد أشكاله أصالة، و الأسلوب والبيئة هما وحدهما اللذان طالهما التغيير مثلما هو المفترض، وقد تقدم مقالة «حسن» المثال على تفسير الإسلام من خلال إطار الفعل (الفهم الغربى للدين) غير مؤهل لتناول ما هو أكثر من الدين، وليس ذلك تلاعبًا بالألفاظ ودلالاتها، لكن ذلك هو مبادئ أساسية يتوجب فهمها من أجل الحوار بين المسلمين وأضرابهم من الأمريكيين للنجاح داخل إطار عمل فكرى.

وتقليديًا، تعنى حرية الدين حتمية تيسير العبادة للمسلمين والآخرين، وينبغى فى الوقت الحالى أن يوجب المقصد الثالث للشريعة، وهو حفظ وحماية الدين والعبادة لكل الناس ولكل العقائد (ليس فقط للأديان التوحيدية)، بوصفه حقًا إنسانيًا أساسيًا، ويعتبر ذلك امتدادًا للفهم البديهى للتعريف التقليدى كما يطبق حاليًا.

﴿لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦][2].

من المهم أن نذكر معنى دقيقًا فى اللغة العربية لهذه الآية ﴿لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ﴾

---

(١) أسماء جول حسن: المسلمون الأمريكيون ـ الجيل الجديد. ص ١٤٤ / ٢٠٠٠م.

(٢) حسان حتحوت: قراءة العقل المسلم. ص ٤٦/ ١٩٩٩م.

بالنفى «لا»، بالمثل تبدأ الشهادة «لا إله إلا الله» بلغة صارمة ومباشرة وواضحة للدلالة على خطورة فرض الدين على الذى لا رغبة لديه، ويوضح هذا المثال الثراء الكامن فى اللغة العربية التى يمكن تطويعها لمثل هذا التأكيد.

«عندما يأمن المرء على حريته وكرامته الإنسانيتين، فسوف يتمتع بالسلطان التام على مصادر قوته وطاقته الإنسانية، سواء أكانت جسدية، أو فكرية، أو روحية ـ نفسية ـ معنوية، وبذلك يستطيع مواجهة التغيرات المختلفة فى ظروف الحياة بتوازن وتناغم، ويشكل ذلك بالنسبة للكائن البشرى أقصى دعم غير قابل للفشل ولن يتعرض أبدًا للتراجع»[1].

للمسلمين الحق وعليهم واجب الدفاع عن أنفسهم إذا تعرضوا لهجوم على الدين، وبالمثل إذا هوجم الآخرون نتيجة لأساليب حياتهم، فإن الواجب الإسلامى يملى الدفاع عن حريتهم الدينية.

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ [الحج: ٤٠].

الجهاد

«الحرب ليست هى جوهر الجهاد، والجهاد الأكبر مثلما بيّن النبى محمد ﷺ هو أولا جهاد النفس: إنه يتضمن جهد كل مسلم من أجل أن يصبح إنسانًا أفضل، وأن يجاهد من أجل إصلاح نفسه»[2].

ويكتب د. ماهر حتحوت:

«إنه ليس الحرب المقدسة: هذا النعت الذى صاغته الحروب الصليبية، وتم فرضه بشكل متكرر للغاية إلى درجة أنه حتى بعض المسلمين تبنوا هذا المصطلح الزائف نفسه، ويحدث ذلك على الرغم من حقيقة أنه لا مقدس فى الإسلام إلا الله... وكلمة (جهاد) مصدر فعلها (جَهَدَ) وتعنى بذل أقصى مجهود أو مشقة،

(١) فتحى عثمان: مفاهيم القرآن. ص ٧٣٩/ ١٩٩٧م.

(٢) أحمد راشد: ظهور الإسلام العسكرى فى آسيا الوسطى. ص ٢/ ٢٠٠٢م.

وتعنى الدلالة الدينية إلى النضال والمجاهدة من أجل الارتقاء والتحسن . . . ، وتعطى الحرب المقدسة الانطباع بأن الجهاد يهدف إلى إعلان الحرب ضد غير المسلمين فى جميع أنحاء العالم ؛ من أجل فرض الإسلام كعقيدة أو كنظام سياسى عن طريق القوة، و يتجاهل مثل هذا الفهم أو عدم الفهم، اللغةَ العربيةَ والمصادر الإسلامية والممارسات التاريخية للمسلمين. يعلن الإسلام أن النضال الشرعى هو وحده له القدرة فى الدفاع عن حقوق الإنسان ـ متضمنة الحرية الشخصية، وحرية العقيدة ـ بوصفها الشكل الصحيح للجهاد ، والجهاد مقصور على حالات العدوان والظلم. يتوجب على المسلم عند حدوث حالات العدوان والظلم أن يداوم على القتال العادل، وأن يجنح إلى السلم بمجرد أن تسنح الفرصة لوقف القتال»[1]. ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦١، ٦٢]. ويسمح للمسلم بالجهاد بالنفس فقط لردع هؤلاء الذين يبدءون بالعدوان: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] السلام والعدل يعلوان دائمًا على الحرب عند أولئك الذين يخشون ربهم[2].

وظاهرة مساواة الجهاد بالحرب المقدسة هى مجرد لمحة من الحملة المغلوطة ضد الإسلام، والجهاد مثله مثل مفاهيم كثيرة أخرى هو مفهوم مستخرج من القرآن (الذى يؤمن المسلمون بأنه كلمة الله). إنه ليس بنظرية سياسية أو اجتماعية يمكن أن تتلاعب بها أهواء النشطاء (الفقهاء)، إنه وسيلة للتزكية (تزكية النفس)، وحدودها مبينة بوضوح فى القرآن، والسنة النبوية، واجتهاد العلماء (بما فيهم من غير المسلمين) خلال تاريخ الإسلام.

وإذا كان لدى «ستيف إيمرسون»، و «دانيال پايپس» وغيرهما اهتمام بدراسة تطبيقات الجهاد فى الزمن المعاصر من خلال إلقاء النظر على التاريخ الخاص به، فعلى الرحب والسعة. إنهم مضطرون رغم ذلك إلى إعطاء الخبرة التاريخية للجهاد وزنها الحقيقى داخل تحليلهم الشامل؛ حيث لا تمثل التطبيقات التاريخية مجمل ـ ولا حتى معظم ـ العناصر الداخلة فى فهم الجهاد.

---

(١) ماهر حتحوت: الجهاد فى مقابل الإرهاب. ص ١٧، ١٨، ٢١، ٦٧ / ٢٠٠٢م.

(٢) المصدر السابق. ص ٦٧ / ٢٠٠٢م.

تلك هى القواعد الفقهية للموضوع الذى يحاولون تحليله، وما يثير عجبى أن هؤلاء المهتمين بالتناول الفقهى للإسلام - مثل «إيمرسون» و «پايپس» - لا يَرَوْنَ أنه يتوجب عليهم اللجوء إلى الخبراء والمرجعيين من المفكرين المسلمين، إذا لم يستطيعوا معرفة البناء التحليلى الموجود فى القرآن، فلا قيمة إذن لآرائهم عن الموضوعات المتعلقة بها.

لا يستطيع المرء أن يشرح قواعد لعبة البيسبول عن طريق عرضها على ملعب الكرة الطائرة (الڤولى بول)، وبدون أن يكون قد رأى أية كرة طوال حياته.

هؤلاء الذين يحاولون إعادة تعريف كلمة «الجهاد»، سوف يهاجمون فى القريب العاجل مفاهيم أخرى، ويلوون أفكاراً أخرى لتلائم أهدافهم السياسية، ويبدو أن الأصوليين المحافظين (الذين يقودهم اللوبى الصهيونى) فى أمريكا يعملون بأقصى جهدهم للحفاظ على تشويش الرؤية حول الإسلام وحول أهله.

لقد قاد العنف الموجه ضد هذه الكلمات - وسوف يقود - إلى عنف ضد المسلمين وإلى لامبالاة بنضالهم. والتعريف بالذات هو من حقوق الإنسان الأساسية، ونحن نستحق الحصول على هذا الحق، مثلما يحوزه الأمريكيون تجاهنا.

السياسة والديموقراطية

«نحن نجد عند دراستنا لحالة الإسلام أن مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة غير قابل للتطبيق بالبديهة. فى حين أن لا وجود فى المسيحية (لتعاليم محددة حول) للدولة، فلا وجود فى الإسلام لكنيسة؛ مما يجعل من المستحيل قياس أحد الموقفين على الآخر، و يجب فتح المكاتب على أساس المؤهلات الشخصية، وأن تتسع الوظائف لكل من المواطن المسلم وغير المسلم»[1].

وحيث لا وجود لكنيسة، فلا وجود لكهنوت أيضًا. الألقاب مثل الإمام، والشيخ، والملا، وحجة الإسلام، وآية الله... تشير إلى خبرة أو إنجاز أكاديمى (رسمى أو غير رسمى) بالمثل لا وجود لـ «صراط مستقيم» أو «طريق داخلى» إلى

---

(١) حسان حتحوت: قراءة العقل المسلم. ص ٥٠، ٥١/ ١٩٩٥م.

الله يمر من خلال وسطاء من البشر، و لا وجود تحت مظلة الشريعة لقادة علويين يملكون سلطانًا غير مقيد للحَجْر على إرادة الناس. ولهذا الأمر وضوح أشد فى مدارس الفكر السنى.

«ووفقًا للقرآن، فإن الحاكم هو الشخص الذى يستمد سلطته من الشعب، وبذلك يكون مسئولاً أمامهم» (١). وعقب وفاة النبى محمد ﷺ، تم اختيار خليفته من خلال مناقشة مفتوحة شهدت أكثر من مرشح، يجمع الدكتور حسان حتحوت القواعد الرئيسية التى تحكم عملية اختيار الحاكم من خلال أفعال أبى بكر:

١ـ الحصول على المنصب عن طريق التفويض الشعبى (الناس) [استقصى أبو بكر آراء الناس الذين لم يكونوا حاضرين للتثبت من موافقتهم].

٢ـ الحصول على المنصب مشروط باقتران حق الناس فى إعطاء التفويض، مع حقهم فى سحبه «أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم».

٣ـ الحاكم هو خادم الأمة.

٤ـ رئاسة الدولة ليست رهينة فى يد الصفوة، أو أهل الحسب، أو جماعات المصالح «الضعيف منكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله» (٢).

وأنا لا أفترض أنه ينبغى التطبيق العلمى لخبرة أبى بكر على جميع الأوضاع؛ فإن الوضع الذى أعقب وفاة النبى ﷺ، أظهر كيف دارت عجلة النفسية الإسلامية الجماعية عند أحد المواقف التاريخية، ولسوء الحظ فقد ضلت معظم الحكومات التى قامت باسم الإسلام منذ ذلك الوقت عن المفهوم العميق للقاعدة الجماعية.

«ويعتبر القرآن الشورى (عملية صنع القرار الجماعى) أحد الأعمدة الرئيسية

---

(١) فتحى عثمان: الإسلام وحقوق الإنسان (من كتاب إعادة التفكير فى الإسلام والحداثة) ص٣٠. ويأتى هذا المفهوم من الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [النساء: ٥٩].

(٢) حسان حتحوت: قراءة العقل المسلم. ص ٥٨.

لمجتمع المسلمين، وبالتالى يعترف بدور الناس فى صناعة السياسة أو القرار؛ وفى الحقيقة ترتبط الشورى في القرآن بطاعة الله، وإقامة الصلاة والإنفاق على حاجات المجتمع[1]. ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وسوف يشابه مفهوم الشورى عند التطبيق الديموقراطية أو الجمهورية، ولا تشكل صورة الديموقراطية فى الولايات المتحدة الأمريكية نموذج التطبيق الخالد، فأى شكل من الحكومة النيابية ذات الشرعية هو نظام ديموقراطى. هناك وفرة من الدول حول العالم تجرى بها الانتخابات (وبعضها ذات شرعية) وتتمخض عن وجود البعض الذين لا يمثلون شعوبهم لسبب أو لآخر، تلك ليست بديموقراطيات، هناك نماذج ملموسة لحكومات نيابية فى التاريخ الإسلامى.

يكتب الدكتور مراد هوفمان:

«لقد أوضح "محمد أسد" فى عمله الرائد (مبادئ الدولة والحكومة فى الإسلام ١٩٦١م) أن الكومنولث الإسلامى النموذجى هو دولة تحت حكم القانون، وجمهورية برلمانية لها دستور يتوافق مع الدساتير الغربية فى جميع النقاط الجوهرية - فصل السلطات، وقائمة الحقوق، والتعددية الحزبية، وحماية الأقليات - طالما يضمن وجود مسلم على رأس الدولة؛ حيث إن الإسلام هو دين الدولة وأن القرآن هو المعيار الدستورى الأعلى»[2].

كل مرحلة لها معاييرها، وفى وقت وفاة النبى ﷺ، فإن مفهوم الحكم من خلال صوت الأغلبية كان مفهومًا تقدميًا، وبالمثل مع اجتهاد العلماء يمكن إنزال هذه المبادئ الأساسية للحكومة على السياق المعاصر للدولة الناجحة، فمن المهم أن نذكر أن الدولة ليست وحدها التى تطبق أيًا من هذه المفاهيم؛ حيث تنطبق ثقافة الشريعة الإسلامية على كل الأوضاع والمقاييس، فمن ثم ينبغى تطبيق قاعدة «الحكم بإرادة الأغلبية» فى المسجد على سبيل المثال، مثلما فى الدولة.

---

(١) فتحى عثمان: الشريعة فى المجتمع المعاصر. ص٦٣.

(٢) مراد هوفمان: الإسلام كبديل. ص ٨٢/ ١٩٩٧م.

«لا وجود لاختلافات رئيسية بين المنظور الغربى وبين المنظور الإسلامى للعلاقة المثالية بين المواطن وبين الدولة، وعلى أساس من القرآن فإن الحقوق الأساسية التالية هى حقوق مكفولة: الحياة، وحرمة الجسد، والحرية، والمساواة فى المعاملة ـ عدم التميز ـ والملكية، وحرية الضمير، والزواج، وحق التقاضى، وأولية البراءة، وعدم إيقاع العقوبة قبل الإعلام بها، والحماية من التعذيب، وحق اللجوء... منذ ألف وأربعمائة عام مضى»[1].

وربما يكون من المذهل للغاية فى السياق القرآنى تلك التوجيهات المفصلة بخصوص محاسبة الذات، التى تقوم هى والحرية الدينية للأقليات كشاهدين ودليلين على التسامح العميق للإسلام[2].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

ويضع الدكتور ماهر حتحوت عنوانًا لتفسيره للآية السابقة يقول «الكرامة الإنسانية»: «للكرامة الإنسانية مفهوم أعرض من حقوق الإنسان؛ حيث تشمل الكرامة التمتع بالحقوق مع أداء الواجبات جنبًا إلى جنب، ولقد كفل الله الكرامة للإنسان منذ خلقه، وهكذا يتكامل الاعتراف بالكرامة الإنسانية مع الهيكل الاعتقادى للمسلم إلى الدرجة التى لا يمكن للأفكار الفلسفية أو القوانين أن تميط عنها اللثام»[3].

ويبرهن د. فتحى عثمان على أن حقوق الإنسان والإيمان بالله لا ينفصلان: «الدفاع عن حقوق الإنسان لأى كائن بشرى هو واجب دينى على المسلم؛ لأنه يؤمن بأن الظلم ليس إلا إعاقة لإرادة الله ولسنته فى خلقه»[4]. يمثل أى تمييز ضد الفرد أو الجماعة فيما يتعلق بالحقوق الأساسية بوصفهم أعضاء فى الجماعة

(١) المصدر نفسه. ص ١١٣.
(٢) المصدر السابق. ص ١١٤.
(٣) ماهر حتحوت: الجهاد فى مقابل الإرهاب. ص ٣٣.
(٤) فتحى عثمان: الشريعة فى مجتمع معاصر. ص ١٠.

الإنسانية، نقيضًا للإيمان؛ لأن ادّعاء أى إنسان بسموه نتيجة المنشأ أو السلطة، يتعارض مع الإيمان بوجود واحد أعظم مطلق[1]. وتتضمن الحقوق الإنسانية التى تحفظها هذه المقاصد الخمسة (مقاصد الشريعة الخمسة)، الحقوق المشتركة للجماعات والشعوب، وحقوق الأفراد بالمثل، كما تتجاوز الحقوق السياسية والاجتماعية جنبًا إلى جنب[2].

وفى حديث للرسول ﷺ: «**الناس سواسية كأسنان المشط. كلكم لآدم، وآدم من تراب. لا فضل لأبيض على أسود، ولا لعربى على عجمى إلا بالتقوى**»[*]، ولقد صرح رسول الإسلام بهذا الحديث منذ ما يزيد عن ١٤٠٠ سنة مضت، وعندما ألقى محاضرات فى بلدة ليكسينجتون بفرچينيا، فأنا أجد مما يثير السخرية أن يمطرنى الحاضرون من طلاب المعاهد مثل المعهد العسكرى بفرچينيا، والمحافظون التقليديون من جامعتى نفسها بأسئلة تتعلق بالمساواة بين البشر، وبحرية الفكر.

وإذا كانت تلك هى طبيعة الإسلام، فلماذا التقديم لصورة المسلمين فى غاية السلبية؟ أنا أزعم أن جهل المسلمين يشكل الوقود الذى يحتاجه أعداؤنا فى العالم لإشعال حرائقهم من المستحيل بدون الاستيعاب لقواعد المفاهيم الإسلامية، أن نخرج بتحليل مفيد للقضايا التى تؤثر على المسلمين على مستوى العالم، والتى يجب أن تقع داخل حيز الواجب بقول الحق.

* * *

(١) المصدر السابق. ص ١١.

(٢) المصدر السابق.

(*) العزية [٥٥].